كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في حفل إطلاق مئويّة مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" Hôtel-Dieu de France، في 5 أيّار (مايو) 2022، في الساعة الخامسة من بعد الظهر، في مدرّج عبجي.

إنّه لفرح "يتّسم بالجديّة" يغمرنا في هذه اللحظة التي يتخبّط فيها بلدنا بأزمة النظام الشامل، والتي نحتفل خلالها بافتتاح الذكرى المئويّة لفكرة إنشاء مستشفى لا مثيل له. "فرح" لأنّ الأمر يتعلّق بالاحتفال بحياة، لا بل بحيويّة مؤسّسة ميّزت حياة وطن ومهنة على مدى قرن من الزمان. إنّه "يتّسم بالجديّة" لأنّ مسؤوليّتنا جسيمة في ما يتعلّق بالاضطرابات التي تهدّد وجودنا ووجود نظام صحّي يلفظ أنفاسه. في هذا الجوّ، أودّ أن أرحّب بكنّ وبكم جميعًا، أصحاب السعادة والضيوف الكرام، أهل مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" Hôtel-Dieu de France وجامعة القدّيس يوسف، بيننا في هذه المناسبة، مناسبة إطلاق أنشطة الذكرى المئويّة لإنشاء مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" وعلى وجه الخصوص، معالي الوزير، وسعادة سفيرة فرنسا، وسيادة المطارنة، والأب الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة في الشرق الأدنى والمغرب العربيّ. في حضوركم يتّخذ الاحتفال معناه وسيكون بالنسبة إلينا درسًا في الحياة يتطلّع نحو المستقبل.

أصحاب السعادة، أصدقائي الأعزّاء،

نشأ مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس في 2 أيّار (مايو) 1922، عندما كان الجنرال غورو Gouraud ممثّل الانتداب الفرنسيّ، والأب كلوديوس شانتور Claudius Chanteur ممثّل الرهبنة اليسوعيّة وسيادة المطران فريديان جيانيني Frédien Giannini، السفير البابويّ في ذلك الوقت، يضعون، بأيدٍ متضامنة، الحجر الأوّل لبناء أصبح اليوم نجمًا يستمرّ في التألّق في سماء الشرق الأدنى والشرق الأوسط وحتّى أبعد من ذلك. في ضوء تطوّر أحداث هذه النشأة، كان الأمر أكثر من معقَّد. بلغة طبيّة إلى حدّ ما، تمّت ولادة المولود الجديد بعمليّة قيصريّة بما أنّ بناء المستشفى، المخطَّط له في العام 1913، في أعقاب المضاعفات التي فرضتها الحرب العالميّة الأولى ونهب العثمانيين للموادّ الخام المشتراة من أجل الورشة، كان لا بدّ من تأجيله بعد انتصار الحلفاء. يحكي الكتيّب الذي تلقّيتموه والذي بين يديكم قصّة هذه الولادة بأدقّ التفاصيل.

حين نحتفل بالذكرى المئويّة، نركّز على المعنى لا الشكل، حتّى لو غيّر مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" شكله الداخليّ والخارجيّ على مدار تاريخه، ولا سيّما الشكل الذي أُعطِي له في التسعينيّات بعد الحرب اللبنانيّة، مع المباني الجديدة المخصّصة لأسماء رؤساء الجامعة السابقين مثل الآباء دوكروييه Ducruet وشانتور Chanteur وماديه Madet، مرورًا بمئة سرير في العام 1923 إلى 470 اليوم وإلى 520 في أقرب وقت ممكن، من ثلاث أو أربع خدمات إلى أكثر من 36 في الوقت الحاضر، ومن مبنى واحد إلى ستّة أبنية حاليًّا. إنّ الأمر لا يتعلّق بالتباهي، ولا بوضع قوائم الإنجازات، وإنّما التركيز على معنى وجود مستشفى، ممّا يشكّل عبئًا في حدّ ذاته، وتطلّعًا نحو المستقبل.

إنّ مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، كما تشير الكلمة، هي كلمة سحريّة تستحضر بيت الترحيب للمارّة، والإحسان إليه واستضافته، ممّا يجعل المشروع الاستشفائيّ مهمّة إجتماعيّة في المقام الأوّل، في إشارة إلى الإنجيل بحسب متّى في الفصل 25 حيث يؤسّس يسوع المسيح إستحقاق المؤمن لملكوت الله في استقبال المريض

وزيارته : "كنت مريضًا فزرتموني" وأيضًا في إشارة إلى شخص السامريّ الذي حمل الرجل الجريح المتروك على قارعة الطريق إلى الفندق رمز المحبّة. في العام 1984، وهو عام توقيع عقد الإيجار ولمدّة 50 عامًا مع الدولة الفرنسيّة من أجل إدارة المستشفى من قِبَل جامعة القدّيس يوسف، تلك هي الروح التي تلقّيناها كإرث للحفاظ على المستشفى، وازدهاره وتألّقه. نرجو أن نحتفظ بهذا الدرس المأخوذ من أبقراط في أيّ عمل طبّي أو إداريّ نقوم به.

ثانيًا، إذا تمّ تأسيس جامعة القدّيس يوسف في العام 1875 لدعم تطوير مدينة بيروت كعاصمة مستقبليّة للبنان الناشئ، وإذا كانت أوّل كليّة فيها هي كليّة الطبّ في العام 1883 بالإضافة إلى كليّة اللاهوت، كان من الواضح أنّ تطوير الرعاية الصحيّة كان مصدر قلق كبير للسلطات السياسيّة والأكاديميّة القائمة وللمؤسّسات الإنسانيّة الإرساليّة، وأنّ صلابة وطن من الأوطان تعتمد على الصحّة الجيّدة التي يتمتّع بها مواطنوه. كان أحد الأسباب التي أدّت إلى إنشاء كليّة الطبّ هو توفير التنشئة لرجال علم وأطبّاء أبطال، على حدّ تعبير المؤرّخ، أولئك الأطبّاء "الذين يجوبون البلاد ويحاربون الدجّالين من جميع الأنواع الذين` يقومون بممارسات مميتة ضدّ السكّان الذين يعانون من جميع أنواع الأمراض". بالنسبة إلى "أوتيل ديو دو فرانس"، أما كان الأب شانتور Chanteur يقول، في خطابه بمناسبة 2 أيّار (مايو) 1922، إنّ أحد أهداف هذه المؤسّسة يكمن "في ترسيخ صالح هذا البلد"؟ في هذه الفترة المضطربة من الحياة الوطنيّة اللبنانيّة، يؤكّد التذكير بهذه الكلمات أنّ المستشفى كمهمّة صحيّة في دعوتها الأساسيّة، هو سعي وراء خير وطننا، وتقديم أفضل رعاية لأكبر عدد من المرضى، أي لأكثر من 18٪ من اللبنانيين الذين يلتمسون الرعاية، لا سيّما أولئك الذين يفتقرون اليوم إلى تغطية الضمان الاجتماعيّ.

لا يمكن فصل مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" عن إحدى مهامّه الأساسيّة المتمثّلة في كونه مستشفى جامعيّ للتعليم السريريّ، وإلا فإنّه سيفقد علّة وجوده بالنسبة إلى جامعة القدّيس يوسف في بيروت. نحن اليوم ندرك، كإدارة للجامعة والكليّة، وكذلك كمجتمع طبّي، أنّه في ضوء ضرورة الاعتماد الدوليّ الجاري لكليّة الطبّ، يصبح من الضروريّ توطيد علاقات قويّة بشكل أفضل بين الكليّة والمستشفى، وهي علاقات قائمة على أسس الثقة والمصالح المشتركة، بين التدريس على مقاعد الكليّة ومع مرضى المستشفى، بحيث يكون هناك استمراريّة وتفاعل في فعل التدريس. يكاد يكون الطبيب في المستشفى مدرّسًا بالضرورة في الكليّة، وإن كان العكس ليس صحيحًا دائمًا لأنّ أطبّاء في المستشفى لا يقومون بالتدريس في الكليّة، ولكنّهم مدرّسون في المستشفى. لكنّ تقدّم كليّة الطبّ باتّجاه الاعتماد لا يمكن إلا أن يترك آثاره الجيّدة على المستشفى الجامعيّ الذي سيعزّز صورته وخدماته المقدَّمة للرعاية الصحيّة الأكثر تنوّعًا وتعقيدًا.

دعونا نتذكّر جملة قالها الأب شانتور، رئيس الجامعة آنذاك، ومعنى جملته : "ستكون مستشفانا في المقام الأوّل مستشفى تعليميًّا، حتّى لا يحصر إتقان أطبّائنا وجرّاحينا فوائده بالمرضى الذين سيكونون المستفيدين المباشرين، بل يمتدّ إلى كلّ لبنان، وسوريا، ومصر، والسودان، إلى بلاد فارس، وإلى الأناضول بلا شكّ، وإلى جميع البلدان المجاورة أو البعيدة التي سترسل طلابها إلى الكليّة الفرنسيّة في بيروت ". صحيح أنّ الزمن قد تغيّر وأنّ الطبّ من بلد إلى آخر يخضع لقوانين متحفّظة إلى حدّ ما. لكن هذه الكلمة، وهي كلمتنا، تخبرنا أنّ تقدّم مؤسّسة صحيّة مثل مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، بدعم من الكليّة ومؤسّساتها الجامعيّة التابعة لها، يمثّل عاملاً حاسمًا في تقدّم الفرانكوفونيّة وأكثر من ذلك في وجود الثقافة الفرنسيّة في جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط، وهي قبل

كلّ شيء فرانكوفونيّة إنسانيّة وفاعلة خير تنشر الطبّ الناطق بالفرنسيّة إلى العديد من البلدان والدول. دعونا نقول على الأقلّ إنّ هذه الجملة تستحقّ أن نستعيدها ونكرّرها ونفكّر فيها وحتّى نتأمّل فيها في ما يمكن أن تكون عليه سياسة ثقافيّة فرنسيّة في هذه المنطقة وما هو الجزء الذي يجب منحه إلى مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، كمركز للبحث السريريّ والعلميّ وكمركز جامعيّ طبّي هنا بالذات في بيروت، لمنطقة الشرق الأدنى والأوسط. "شهرة فرنسا الصالحة"، هذا المقطع من خطاب رئيس الجامعة في الماضي وخطاب اليوم، هل لا يزال له مكان في قاموس اليوم وغدًا ؟

في الختام، الذكرى المئويّة هي فرصة لتقديم كلمات الامتنان والتقدير لآلاف الأشخاص الأكفّاء هؤلاء، الأطبّاء، والممرّضات والممرّضين، ومساعدي التمريض، والمدراء والإداريين، والراهبات والرهبان كمرشدين روحيّين، وكرؤساء مجلس الإدارة، الذين صنعوا مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"- أعزّائي الفاعلين الحاليين في مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، الجسم الطبّي، والأطبّاء المناوبين، والطلاب والممرّضين ومقدّمي الرعاية الصحيّة، والجسم الإداريّ واللوجستيّ، بالإضافة إلى الداعمين من جامعة القدّيس يوسف إلى مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، لديكم مكانة خاصّة في أذهاننا وقلوبنا لأنّكم أنتم، من خلال جهدكم وكفاءتكم، ستحملون مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" من ذكرى مئويّة إلى ذكرى أخرى تُستهَلّ ؛ كيف لا نفكّر بشكلٍ خاصّ بالمتبرّعين، متبرّعي الأمس واليوم، الذين يساعدوننا على البقاء فاعلين وفي صميم المهمّة الاجتماعيّة التي ننجزها من خلال الصندوق، لا بل من خلال صناديق التكافل الاجتماعيّ للمرضى، وكذلك من أجل تطوير المستشفى، فنعبّر لكم عن امتناننا وتقديرنا. في الواقع، هناك الكثير ممّن مدّوا يد المساعدة إلى مستشفانا، بمناسبة هذه الأزمة المتعدّدة، خرّيجي جامعة القدّيس يوسف وكليّة الطبّ، وأصدقاء من كلّ مكان، ومؤسّسات وأفراد، سواء في لبنان، أو فرنسا أو الولايات المتّحدة وبلدان أخرى تواصل إظهار تضامنها، خاصّة مع المرضى الذين لا يستطيعون تحمّل عبء علاجاتهم. في الإشادة بالمتبرّعين، سواء من خلال مؤسّسة Fondation USJ//HDF التابعة لجامعة القدّيس يوسف ومستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"أو إدارة المستشفى بشكلٍ مباشر، لا يسعني إلا أن أتطلّع إلى اللحظة الحاليّة من أجل تقدير الأشخاص الذين قدّموا وقتهم وفكرهم من أجل تحضير هذا الاحتفال اليوم وشكرهم، ومن أجل الذكرى المئويّة بأكملها، سواء كان ذلك فريق التواصل في المستشفى أو دائرة المنشورات والاتّصالات Spcom في جامعة القدّيس يوسف، أو إدارة المستشفى، أو مندوب رئيس الجامعة للتسويق. على الرغم من الأزمة، هناك دائمًا أشخاص يشيرون بأصابعهم ليس للتهديد أو التحذير، ولكن للإشارة إلى الطريق نحو المستقبل، مستقبل الخلاص وإرادة الانتصار على الشرّ المُرتَكَب.

سيّدتي السفيرة، سيّدي الوزير، أصدقائي الأعزّاء، الوقت والبناء، والأعمال والجهود المبذولة، أمس كما اليوم، في أيّام الحرب وسفك الدماء، وفي لحظات السلام والفرح، والولادات، كلّ هذا هو عمل نساء ورجال بذلوا أفضل ما لديهم ويريدون وأرادوا مشاركة روح المهمّة. إذا مُنِحَ وسام جوقة الشرف لشخص ما، فهو قد مُنِح لجامعة بأكملها واليوم يجب أن يُعَلَّق هذا الوسام على صدر مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" وإن لم يكن كاملًا. إنّ مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" هو مصدر فخر فرنسيّ ولبنانيّ مشترك أكثر من أي مؤسّسة أخرى. إنّ عمل مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" هو مصدر فخر مشترك فرنسيّ ولبنانيّ. عمل مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" هو فخر حقيقيّ ووعد قويّ باستمراريّة مهمّة لا تزال آنيّة.

نحن فخورون، أكثر من أي وقت مضى، بثقافة إنسانيّة وعلميّة يمثّلها مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، بل بالأحرى بتراث يأتي إلينا من بعيد ونفخر به وعلينا حمايته لنستمرّ ونبقى نعيش باسم القيم اللبنانيّة والفرنسيّة المكوّنة من روح المقاومة في مواجهة العداء، والشجاعة في مواجهة الإحباط، والعدالة في مواجهة التخلّي عن الإنسانيّة، والتضامن الجامح في مواجهة الأنانيّة والكفاءة الحازمة والولاء المطلق.

يحيا مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس"، المستشفى الجامعيّ التابع لجامعة القدّيس يوسف في بيروت.

تحيا فرنسا ويحيا لبنان.